الصمود السوري وسقوط نظريات الجيوبولتيك الغربية

أ. د. إبراهيم أحمد سعيد*

الملخص

درس في هذا البحث وحُلِّلَ العدوان الظالم على سورية ضمن الأطر النظرية التي أسس لها الغرب والصهيونية العالمية للاعتداء على أمتنا العربية، وتدمير قواها الكامنة، واستباحة دماء أبنائها، وسرقة خيراتها، ونهب مدّخراتها، وتهيئة الظروف المناسبة ليهودية وعنصرية الدولة العبرية بإيجاد دول عربية طائفية قزمة تخدم المشروع الغربي والصهيوني. وجرى في البحث قراءة موضوعية علمية للحرب العدوانية على سورية في الأسباب، وفي كيفية الخروج منها بالتصدي للمؤامرة العدوانية، ومحاربة الإرهاب، وإعادة بناء المجتمع السوري وتشكيله على أسس من العدالة والعلمانية والوطنية. فقد دُرِسَت أهم نظريات الجيوبولتيك الغربية الكلاسيكية التي استخدمها الغرب في العدوان على سورية كنظرية هالفورد ماكندر ونظرية سبيكمان فضلًا عن دراسة النظرية الواقعية والليبرالية والبنائية والنقدية وما بعد الحداثة وتحليلها. وجرى إيضاح محاولات الغرب لتغيير سلوك الدولة السورية، أو تدميرها، وإقامة إمارات ودويلات متناحرة صغيرة تحيط بالكيان الصهيوني ضمانًا لأمنه، وضمانًا لاستمرار تدفق النفط والغاز إلى الولايات المتحدة وأوروبا. وحاول البحث إظهار ما يُعرف بدور الدولة العميقة في بعض الدول الغربية في اتخاذ القرار السياسي، وفي ضرب الدولة السورية، ودعم الإرهاب. وفي النهاية توصل البحث إلى نتائج مهمة عرّى فيها الأساليب والوسائل غير الإنسانية، بل غير الأخلاقية التي استخدمها الغرب للوصول إلى أهدافه التدميرية باستخدام الإرهاب والكذب والافتراءات والقوة بأشكالها المختلفة كالحصار الاقتصادي والقوة العسكرية سواء في تدريب الإرهابيين وتأهيلهم، أو في الدخول المباشر إلى الجغرافية السورية وانتهاك السيادة السورية، وإقامة القواعد، ودعم قوى داخلية ذات أهداف تفكيكية للمجتمع السوري طائفًا وقوميًا. وكان من النتائج المهمة هو

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الجغرافية.

أن هذه الأزمة ليست عابرة، وليست نتيجة طبيعية لأسباب محلية، بل هي نتيجة لمؤامرة غربية أُعدت منذ سنين طويلة، ولكن وُجدت بعض الروافع المحلية التي استغلت لتدمير الدولة السورية.

الكلمات المفتاحية: الجيوبولتيك، الجيواستراتيجيا، الأزمة، الواقعية، الليبرالية، البنائية، النقدية، ما بعد الحداثة، الإرهاب، النسق الاجتماعي، القوة الناعمة، سلوك الدولة، قلب الأرض، أوراسيا، الهلال الداخلي، الريمي لاند، الموقع، السيادة.

Syrian Steadfastness and the Fall of Western Geopolitical Theories

Prof. Dr. Ibrahim Ahmed Said *

Summary

This research studies and analyzes the unjust aggression against Syria within the theoretical frameworks established by the West and the world Zionism in order to attack our Arab nation, destroy its potential forces, exploit the blood of its children, loot its goods and plunder its savings, and create suitable conditions for Jewishness and racism of the Jewish state by establishing pygmy, sectarian Arab states that serve the west and Zionist scheme. The research offers a scientific objective reading of the war of aggression on Syria and its reasons and how to end it by resisting the conspiracy, fighting against terrorism, reconstructing and reforming the Syrian society on the foundations of justice, secularity and patriotism. There is an analysis of the most important theories of the classic Western geopolitics which were used in the aggression on Syria such as the Mckinder and Spykman theories in addition to studying and analyzing the realistic, liberal, constructive, critical and postmodernist theories. The research clarifies the West's

* Department of Geography, Faculty of Arts and Humanities, Damascus University

attempts to change the conduct of Syria or destroy it and establish small warring states surrounding the Zionist entity to ensure its security and the continued flow of oil and gas to the United States and Europe. The paper also shows what is known as the role of the deep state in some Western countries in political decision-making, in attacking the Syrian state, and supporting terrorism. The research has important results that reveal the methods and the inhuman and even the immoral means used by the West to reach its destructive goals by using terrorism, lies, slander and force in various forms such as imposing economic embargo and military strength, whether in training and rehabilitating terrorists or in direct entry into Syrian geography, violating its sovereignty, building bases, supporting internal forces with aims of disintegrating the Syrian society on a sectarian and national level. One of the important results is that this crisis was not a coincidence or a natural result of local reasons. Rather, it was the result of a Western conspiracy, prepared long years ago and unfortunately found some local supporters who were exploited to destroy the Syrian state

المقدمة:

عندما ينظر المرء إلى ما حل بالدولة السورية والمجتمع السوري من تدمير وقتل وسفك لدماء السوريين وتعطيل لديناميك القوة والنمو والازدهار في الدولة السورية، يتساءل: ما الذي اقترفه السوريون من ذنب عظيم في حق جيرانهم وأمتهم والحضارة الإنسانية ليُعاملوا بهذه القسوة الوحشية التي لا تشبهها وحشية في التاريخ المكتوب؟ ألم يُشكّل السوريون جذر الحضارة الإنسانية بأبجديتهم التي قدّموها للعالم ومعزوفاتهم الموسيقية التي ترقى بالإنسان مرحلة السمو الإنساني ليعانق إنسانيته؟ كما قال سقراط: إنَّ الإنسانية ليست دينًا، ولكن يصعب على كثير من البشر الوصول إليها. ألم يتعامل السوريون مع جيرانهم، أولًا الأتراك، بكل احترام وتقدير على الرغم من عنجهيتهم والتراث الصعب الذي تركوه خلال أربعمئة سنة، وفتحوا بوابات بلدهم للبضائع التركية، وأقاموا المشاريع المشتركة. ألم يطرح السوريون مشروع البحار الخمسة بين شعوب ودول الإقليم الجغرافي السياسي لشبه جزيرة العرب والمشرق العربي وتركيا وإيران وأرمينيا وأذربيجان وجورجيا حتى روسيا، وطرحوا أيضًا زيادة التشبيك بين شعوب الإقليم لما فيه خير للجميع. فقد قدّم السوريون كل ما احتاجت إليه الدول المجاورة لهم (لبنان والأردن والعراق)، وكان باستطاعة سورية تقديمه، كالكهرباء والقمح والمياه واستقبال المهجرين من هذه الدول إبان حرب الخليج، وغزو العراق، وحرب جنوب لبنان، ولم تبنِ الدولة السورية مخيمات لجوء لأحد بل قام السوريون باستقبال إخوانهم العرب في بيوتهم وضمن مجتمعهم في المدن والقرى السورية، حتى مع الكويتيين تعامل السوريون في عام 1991م بكل احترام وانفتاح وأخوة. أمَّا مع الفلسطينيين فقد ساوى السوريون بين إخوانهم الفلسطينيين في كل شيء. أمَّا في الهم العربي الكبير، في المشروع القومي العربي وفي قضية العرب الأولى فلسطين فهل يستطيع أحد في الدنيا ولا سيّما العرب، إلا ويقول إنَّ ذنب سورية الأول هو حملها للهم العربي، والسعي لتحقيق الآمال العربية وأهداف العرب المستقبلية كأمة محترمة بين الأمم، ألم يُطلق القوميون العرب (جمال عبد الناصر) شعار بأن سورية قلب العروبة النابض، فسورية حاملة لواء العروبة في التصدي للمشروع الغربي الاستعماري

الإمبريالي في نهب خيرات أمتنا وتفتيتها وإيجاد البيئة الحاضنة للدولة العبرية في جغرافية المشرق العربي ومفصله مع الشمال الإفريقي العربي.

في هذا البحث دُرِسَت وحُلِّلت العوامل الجغرافية السياسية التي دفعت بالعدوان على سورية والنظريات الجيوبولوتيكية التي اعتمد عليها الغرب في عدوانه كي نصل بقراءاتنا إلى الأسس التي ينطلق منها الغرب في محاربة الشعوب ثم نستحضر الاستراتيجية المناسبة لحماية شعوبنا، وتحصينها من جهة والرد المناسب على تلك التحديات.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث من كونه يستخدم المناهج العلمية في دراسة العدوان الظالم على سورية وتحليله ضمن الأطر النظرية التي أسس لها الغرب والصهيونية العالمية للاعتداء على أمتنا العربية، وتدمير قواها الكامنة، واستباحة دماء أبنائها، وسرقة خيراتها، ونهب مدّخراتها، وتهيئة الظروف المناسبة ليهودية الدولة العبرية وعنصريتها بإيجاد دول عربية طائفية قزمة تخدم المشروع الغربي والصهيوني[1]. فضلًا عمّا يقدمه البحث من قراءة موضوعية علمية للحرب العدوانية على سورية في الأسباب، وفي كيفية الخروج منها بالتصدي للمؤامرة العدوانية، ومحاربة الإرهاب، وإعادة بناء المجتمع السوري وتشكيله على أسس من العدالة والعلمانية والوطنية زيادة في تحصينه وتحديد الروافع التي استخدمها الإرهاب داخليًا بالتقاطع مع المؤامرة الغربية الصهيونية الرجعية. أي في إدارة الدولة السورية واستراتيجية التربية فيها وفي مجالات التنمية المتكاملة الشاملة (الإقليمية والقطاعية والخدمية).

إشكالية البحث وتساؤلاته وفرضياته:

تكمن إشكالية البحث في أن الأزمة السورية لا تشبهها أزمة في العالم السياسي المعاصر، حيث تقاطع الداخلي مع الخارجي والإقليمي مع الدولي والرجعي مع من ادعى الليبرالية والطائفي والمذهبي مع الأممي والاشتراكي والرأسمالي؛ لذلك جاء هذا المركّب (الكمبلكس)

[1] وفقًا لتقسيم نورمان بوندس فإن الدول التي تقل مساحتها عن 25ألف كيلو متر مربع تسمى قزمة، ومن 25 –125 ألف كم2 دول صغيرة جدًا وهكذا... يمكن العودة للكتاب:

Norman, J. G: Ponds. PoLitical Geography. MC. Grew–Hill Book CO, New York, 1963, P: 27.

المعقّد في الأزمة السورية ليكون جامعًا للمكونات الإقليمية والعالمية للقوى السياسية العالمية كلّها من جهة، ولحالة الدولة الوطنية وسلوكها تلك الدولة التي تتعرض لخطر يهدد وجودها وبقاءها. تثير إشكالية البحث تساؤلات عدة أهمها:

1- لماذا تكالبت أكثر من مئة دولة على سورية بهدف تدميرها، وهي تعلم بأن سورية دولة علمانية حيث الحريات فيها مرتفعة المستوى، قوميًا ومذهبيًا وطائفيًا ؟.

2- هل يُعقل أن الدول التي تآمرت على سورية لا تعرف أن الذين يحملون السلاح فيها ضد الدولة إرهابيون هدفهم تدمير الحضارة الإنسانية، أينما كانت، وليسوا معارضة سياسية؟.

3- لماذا لم تُقدّر هذه الدول من جهة، ولم تأخذ بنصيحة القيادة السورية بأن الإرهاب سيرتدّ عليها، ولن يكونوا بمنأى عنه من جهة أخرى؟.

فقد طرحت الفرضيات الثلاث الآتية انسجامًا مع الإشكالية والتساؤلات والأهداف المطلوب الوصول إليها، وهي:

1- تعود الأزمة السورية لأسباب محلية متعلقة ببنية الدولة السورية وبإدارتها.

2- تعود الأزمة السورية لمؤامرة خارجية أُعدّت منذ سنين في مطابخ الغرب الإمبريالي والصهيوني.

3- تعود الأزمة السورية للعاملين السابقين، حيث المؤامرة كانت موجودة، وقد وجدت لها مشجعات محلية.

متغيرات البحث:

في دراسة الأزمة السورية وتحليلها نجد المتغيرين الآتيين:

1-متغير مستقل، وهو واقع الدولة السورية وصمودها.

2-متغير تابع يتجلى بأشكال تصدي الدولة السورية ومظاهره لتواتر مظاهر العدوان والحرب عليها.

منهجية البحث:

استُخدِمَت مناهج تتوافق مع طبيعة الموضوع المدروس، مثل:

1-المنهج الوصفي التحليلي، الذي استخدم في تحليل نظريات الجيوبولتيك الكلاسيكية.

2-منهج صنع القرار السياسي واتخاذه، الذي يفيد في دراسة صنع القرار السياسي والسلوك السياسي المعدّل بناءً على التغذية الراجعة التي تفرضها المتغيرات المتلاحقة.[2]

مباحث البحث ومطالبه:

المبحث الأول: العوامل الجغرافية التي دفعت بالعدوان على سورية:

المطلب الأول: الموقع: يُشكّل الموقع أحد أهم العوامل الجغرافية المهمة في قوة الدولة، إذ يُكسبها إمكانيات هائلة مفتوحة لتنطلق إلى فضاءات متعددة المستويات، فإذا استثمرت بالشكل المناسب شكلت قيمة مضافة كبيرة تزيد من قدرة الدولة على توظيف مواردها الأخرى لتحقيق الأهداف الكبرى التي ترسمها لنفسها، ولكن بالوقت نفسه إذا لم تتمكن من ذلك فقد يُصبح الموقع عاملًا من عوامل التقاطعات الجيوبوليتيكية لقوى أخرى إقليمية ودولية على حد سواء إذ يُصعّب على الدولة المحافظة على سيادتها وعلى إنضاج روح الأمة فيها وازدهارها. وهناك أمثلة كثيرة في العالم على النموذجين.

تمتلك سورية موقعًا متميزًا لا تمتلكه إلا قلة من الدول خارج إقليمها الجغرافي. فهي تقع في وسط الخريطة السياسية العالمية، للعالم المسكون، من حيث دوائر العرض وخطوط الطول بين 32.19 درجة و37.20 درجة شمال خط الاستواء في درجات العرض بين 35.43 و 42.23 خط طول شرق غرينتش. وتقع سورية في السواحل الشرقية للبحر المتوسط، البحر الاستراتيجي العالمي، حيث توجد مصر وتركيا ولبنان وفلسطين (والأردن والعراق الاستمرار المكاني الطبيعي في إقليم المشرق العربي)، ويأتي الموقع الحضاري وما أنتجه من تراث حضاري وإنساني في المراكز الكبرى (دمشق، القدس وأنطاكية) قد شكّل ممرًا حضاريًا لمعظم الإمبراطوريات القديمة، التي أضافت شيئًا معرفيًا كوّن فيما بعد الهوية السورية التي تُعدّ بحق الجذر الحضاري للإنسانية. ولسورية موقع اقتصادي متميز أيضًا،

[2] ركز هذا المنهج على دراسة القرار السياسي للدولة، وعلى سلوكها، ويقوم برصد المتغيرات الداخلية المؤثرة في هذا القرار (القوى السياسية والاجتماعية والمدنية غير الحكومية الفاعلة واستطلاعات الرأي وغيرها)، والمتغيرات الخارجية أيضًا (كالتحالفات الإقليمية، أو القوى الدولية الفاعلة، وما تتخذه من إجراءات ضمن مجلس الأمن، أو العقوبات الاقتصادية، والمالية، والعسكرية، وغيرها وربما التهديد المباشر باستخدام القوة).

فهو يُعدّ ممرًا بين أوروبا والخليج وطرق الملاحة بين المتوسط والبحر الأسود، والاكتشافات الجديدة في شرق المتوسط من خامات النفط والغاز الكبيرة، ستطرح خريطة جديدة لتوزيع شبكات لنقل الطاقة (طاقة الغاز) ستكون سورية حلقة مهمة جدًا في هذه الخريطة فضلًا عن أهميتها في الاتصالات الدولية. وأخيرًا لسورية موقع جيواستراتيجي[3] مهم بين القارات، آسية وأوروبا وأفريقية.

موقع سورية في خريطة العالم السياسية:

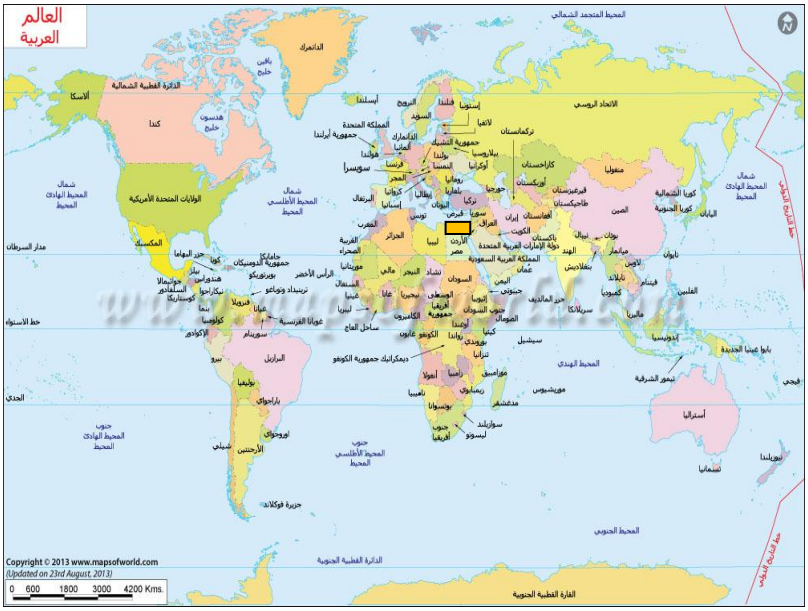

[3] الموقع الجيواستراتيجي: هو الموقع الجغرافي المتميز غير الموظف لأهداف جيوبولتيكية من دول محددة، ولكن عندما تستخدمه الدول ويصبح هدفًا ومطمعًا محددًا فإنه يخل في إطار المصلحة الجيوبوليتيكية. فالجيوبولتيك هنا تحويل الجيواستراتيجيا لأهداف محددة من دول محددة خاج حدود تلك الدول.

المطلب الثاني: موقع سورية في نظريتي الأساس في الجيوبولتيك الكلاسيكي:

1- موقع سورية في نظرية هالفورد ماكيندر البرية: مما لا شك فيه أن نظرية ماكندر تُشكّل الأس الأقدم والأهم في نظريات الجيوبولتيك كونها النظرية الجغرافية الأولى التي ترى بالعالم كله وحدة سياسية متكاملة ومتفاعلة (الخريطة السياسية العالمية) منطلقة من مميزات جغرافية ذات قيمة سياسية عظيمة، ليس إقليميًا فقط بل عالميًا، من منطلق تقسيم القوى العسكرية الفاعلة بقوة على الصعيد العالمي، الحاسمة في مجال الحروب الكبرى، وهي القوى البرية والقوى البحرية. ومع أن ماكندر ينتمي لبريطانيا ذات البيئة البحرية، ومع أن قوة بريطانيا التي جعلت منها الدولة الأكثر اتساعًا في تاريخ الحضارة الإنسانية، هي القوة البحرية المحمولة على أسطول كبير، إلا أنَّ نظرية ماكندر جاءت في إظهار أهمية القوى البرية واتصال القارات ووحدتها ولا سيّما أوراسيا وإفريقية. نحن هنا لسنا في مجال استعراض لنظرية ماكندر[4] (Heart Land) ولكن نريد فقط أن نبين موقع سورية في هذه النظرية، فبعد أن طوّر ماكندر نظريته في مرحلتين (في عام 1917، وفي عام 1945 م) إذْ وصلت إلى حدها المتكامل وفق أفكاره العبقرية، فقد بيّن ماكندر أن المنطقة الواصلة بين القلب الكبير Great Heart في وسط أوراسيا والقلب الصغير Small Heart في وسط إفريقية يمر في سورية، بل أكثر من ذلك تُشكّل سورية المنطقة الوسطى للجسر الواصل بين القلبين ومن ثمَّ فهي إمَّا أن تكون نقطة القوة فيه أو نقطة الضعف، ومع ما أضفناه في المطلب الأول المتضمن الموقع المتميز، مفتاح السيطرة والهيمنة على العالم وفق هذه النظرية بما يتعادل مع المفتاح الذي وضعه ماكندر لنظريته وهو ساحل النورماندي في الأراضي الواطئة (هولنا وبلجيكا)، ولذلك اكتسبت سورية أهمية متفردة ووضعًا استثنائيًا في المصالح الجيوبوليتيكية الأوروبية أولًا، والأمريكية ثانيًا.

2- موقع سورية في نظرية نيكولاس سبيكمان /البحرية/: وجّه سبيكمان انتقاداته اللاذعة لنظرية ماكندر، كونه ينطلق من مصالح أمريكية بحتة، مع ذلك فقد رأى أنها نظرية عظيمة فتحت أمام الدراسات السياسية ونظريات العلاقات الدولية آفاقًا واسعة وجديدة، ولكن

[4] يمكن العودة إلى كتاب ما بين الجغرافية السياسية ومخاطر الجيوبولتيك والعولمة.، دار الأوائل، دمشق، 2006، للباحث.

سبيكمان في حقيقة الأمر لم يخالف ماكندر في الخطوط العامة إلّا في أهمية قلب الأرض الكبير ودورهم وهذا يوافق عليه معظم الجغرافيين، ولكن قد لا يتوافق معهم جنرالات الحروب وأركانها، أمَّا الهلال الداخلي الذي يوليه ماكندر أهمية في نظريته، الممتد من هولندا مرورًا في وسط أوروبا إلى تركيا وسورية والعراق وإيران حتى شبه الجزيرة الكورية، فقد تبناه سبيكمان بعنوان مسمى الريمي لاند RimLand وهو يُشكّل منطقة التصادم بين القوى البحرية والقوى البرية ومن ينتصر ويُهيمن عليه يُهيمن على جزيرة العالم (أوراسيا وإفريقية عند ماكندر) ومن ثمَّ على العالم. هنا يظهر أثر سورية مع تركيا والعراق وإيران التي تمثل وحدة جغرافية واحدة في وسط الريمي لاند ولذلك من يسيطر على هذه الوحدة الجغرافية يسيطر على الريمي لاند ومن ثمَّ يُحيّد قلب العالم، ويسيطر على جزيرة العالم وعلى العالم. من هنا كانت اقتراحات سبيكمان[5] على الولايات المتحدة في محاصرة الاتحاد السوفييتي بسلسلة من القواعد في الريمي لاند، وعدم السماح بنشوء قوة عظمى فيه تكون منافسة للولايات المتحدة، وضرورة اختلاق حروب بينية بين دوله حتى لا تقوم لها قائمة من جهة ولتكون بحاجة للولايات المتحدة، لحل تلك النزاعات من جهة وتزويدها بالسلاح والمؤن من جهة ثانية. يمكن الآن فهم تاريخ المنطقة، أي إن إقليم سورية الجغرافي المتضمن العراق وتركيا وإيران، وما تعرضت له سورية وإقليم المشرق العربي من مؤامرات وسياسة أحلاف في الخمسينيات وما تلاها في الستينيات من حروب واعتداءات ودعم لإسرائيل في تنفيذ المشروع الغربي فيما يُدعى بالشرق الأوسط ومسمياته المتعددة /الكبير والجديد/ وسياسة الفوضى الخلاقة، ضمانًا لأمن الكيان الصهيوني وتأمين مصادر الطاقة الرخيصة، وخرائط التقسيم التي قُدّمت من قبل الصهيوني برنار لويس[6] في ثمانينيات القرن الماضي إلى الكونغرس الأمريكي.

[5] توفي سبيكمان في خضّم الحرب العالمية الثانية في عام 1943م.

[6] هو كاتب ومؤرخ ولغوي متخصص بالإسلام، واللغات الشرقية (العربية، والآرامية، والعبرية)، وتاريخ الشرق الأوسط في القرنين الماضيين أشرف على رسائل جامعية كثيرة منها رسالة للدكتور سهيل زكار، بريطاني الأصل أمريكي الجنسية محاضر ومستشار في الجامعات الأمريكية.

إن اكتشاف كميات هائلة من النفط والغاز في الرصيف القاري لشرقي البحر المتوسط الممتد من سواحل مصر الشمالية الشرقية حتى سواحل اللاذقية إلى جزيرة قبرص سيجعل من إقليم سورية الطبيعية (فلسطين ولبنان وسورية) من أهم الأقاليم الجيوبوليتيكية العالمية إذ ستتوجه الخطط الاستراتيجية للقوى الاستعمارية والاقتصادية العالمية نحوها، وذلك وفق الشكلين الآتيين:

أ- **الشكل التنافسي التناحري**، كونها منطقة جيوبوليتيكية تتصارع فيها مصالح الدول الكبرى والشركات العابرة للقارات المهيمنة في مجال النفط والغاز، وهذا قد يخلق أوضاعًا سياسية في المنطقة قد تتوافق مع حالة التناحر بين دول المنطقة، وسيكون للكيان الصهيوني الدور الأساس في التحريض والتآمر وربما التحارب. ولكن سيكون لسورية الدور الأساس في التصدي للمحاولات الصهيونية في تدمير المنطقة وتبديد خيراتها؛ ممَّا سيجعل سورية كما كانت حاملة لقضية العرب ومدافعة عن حقوق شعوب الإقليم.

ب- الشكل التنافسي التعاوني في حال استطاعت دول المنطقة إيجاد حالة توازن وانسجام وتعاون لاستثمار الموارد الدفينة الاستراتيجية، وخلق تنمية قطرية وإقليمية تدفع بإقليم المشرق العربي (ضمنًا العراق) إلى مستويات متقدمة تحقق لشعوبها الأمن والازدهار والتطور في مختلف مجالات الحياة، وفي بيئاتها التي تعيش فيها، سيكون لسورية الدور الرائد في قيادة هذه العملية الحضارية المبنية على العلم والتخطيط وامتلاك القوة اللازمة، واتخاذ القرارات الاستراتيجية المناسبة. فسورية في إقليمها الجغرافي مهيمنة ورائدة وقائدة لما تمتلك من إرث حضاري، وإمكانيات مادية جيدة، وموارد بشرية متميزة، وقيادة استراتيجية فريدة، وعقيدة ذات قيم عروبية وإنسانية.

المبحث الثاني: استخدام الغرب لنظريات الجيوبلتيك في سعيها لتدمير سورية:

المطلب الأول: استخدام نظريات الجيوبولتيك الحديثة: هناك نظريتان أساسيتان في الجيوبولتيك الحديث تستخدمان بطريقتين مختلفتين، وهما:

1- النظرية الواقعية القائمة على الآتي:

أ– **الأمـن القـومي: National Security** كهدف محوري في سيادة الدولة على جغرافيتها السياسية أولًا، وفي إقليمها الجغرافي ثانيًا، وفي العالم ثالثًا فالأمن القومي للدولة يُحدّد سلوكها في المستويات الثلاثة المتكاملة داخليًا، وفي إقليم الدولة، وفي العالم كله والأساس فيه هو الأمن الداخلي إذْ بغيره لا تستطيع استكمال الأهداف الأخرى.

ب– المصلحة: Interest التي تعني تلبية احتياجات سكان الدولة ومؤسساتها، وضمان توازنها، وتحقيق دورها الذي يتوافق مع إمكانياتها وعقيدتها محليًا وإقليميًا ودوليًا. وهو مركزي يُبنى على مر الزمن، ويرتكز على بعض الأسس، أهمها: الموقع، والموارد، والسكان، والأهداف الاستراتيجية.

ت– القوة: Power وهي الأداة التي تعتمدها الدول في العادة لفرض هيبتها وتحقيق الأمن الداخلي والخارجي، الذي يجب أن تسعى الدول من أجله ومن أجل المصلحة أيضًا، الذي يُعدّ الأمن جزءًا منها. مع تأمين احتياجات الدولة. وقد عرّف القوة رائد هذه النظرية روبرت دول[7] بأنها قدرة الفاعل (أ) على أن يُجبر الفاعل (ب) على أن يفعل شيئًا أو يمتنع عن فعل شيء ما كان سيفعله الفاعل (ب) لولا قدرة الفاعل (أ). تُستخدم هذه النظرية في دول العالم كلّها –سواء اعترفت بذلك أم لم تعترف– وهي تناسب الدول كلّها، ولكن ليست جميعها قادرة على الإفادة منها الفائدة المطلوبة، فهذه النظرية كي تستخدم تحتاج إلى إمكانيات كبيرة، مادية وغير مادية، وتحضيرات بنوية تتجلى بمؤسسات الدولة الاقتصادية والاجتماعية والخدمية عبر الزمن (50 سنة أو أكثر) فضلًا عن قوة عسكرية متوازنة متكاملة فاعلة، أي مدربة التدريب المناسب، ومسلحة التسليح المناسب للدول التي تسعى أن تكون قوية في بنيتها وفي إقليمها وعلى الصعيد الدولي، فالقوة هي جوهر العلاقات الدولية، والقوة العسكرية تشكل هدفًا ووسيلة لتحقيق المصلحة الوطنية والأمن القومي. ولكن كيف استُخدمت هذه النظرية في الأزمة السورية؟

إن المتتبع لمجريات الأحداث وتطورها منذ بداياتها في آذار 2011م، بل حتى قبل ذلك يجد، أن الغرب قد حاول بالفعل أن يُغيّر من سلوك الدولة السورية من خلال العقوبات التي

[7] Dahl, R: Politics; Who Gets What, When and How. Yale. New Haven , 1966, P: 45.

كانت مفروضة عليها منذ عقود وقد ازدادت هذه العقوبات خلال ثمانينيات القرن الماضي، ولم تتوانَ بعض الدول الغربية ولا سيّما الولايات المتحدة عن استخدام قوتها المباشرة في الاصطدام المباشر مع القوات السورية في لبنان، وهذا ما فعله الكيان الصهيوني غير مرة في لبنان وعلى الأراضي السورية. إن الدخول في تفاصيل استخدام هذه النظرية ضد الدولة السورية الوطنية ليس مهمًا في هذا المجال الذي نتحدث به، ولكن من المهم أن نعرف أن الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة لم تدّخر جهدًا في استخدام أشكال القوة (الخشنة) للوصول إلى أهداف تضر بالدولة السورية، وتتقاطع مع مصالح الكيان الصهيوني في العقود الماضية، وخلال الأزمة، وعندما أخفقت معظم الخطط المرحلية الموضوعة لتدمير الدولة السورية باستخدام آليات الإرهاب العالمي وقواه اضطرت الولايات المتحدة وحلفها الدولي (قيادة التحالف) للدخول مباشرة في أرض الميدان، فقد قدّمت الدعم القتالي المباشر (إنزال الذخيرة والأسلحة بالطائرات) ودَرَّبَت وسَلَّحَت الإرهابيين بعنوان دعم المعارضة السورية[8]. فقد ألغى الرئيس الأمريكي رونالد ترامب هذه الإجراءات في يوم 2017/7/22م، واعترف في يوم 2017/7/25م بأن هذا البرنامج الذي تتبعه وكالة الاستخبارات الأمريكية مخفق وأحمق وغير مفيد. كذلك طورت الولايات المتحدة ومعها بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الإمبريالية من أشكال التدخل المباشر باستخدام القوة لتحقيق أهدافها العدوانية (بعنوان المصالح الغربية والأمن الدولي) فبنت قواعد في الجغرافية السورية وفق مصالح جيوبوليتيكية مستقبلية، في الرميلان وعين العرب والطبقة والتنف وغيرها من المناطق (فقد نشرت وكالة الأناضول التركية سبعة مواقع للأمريكيين في الجغرافية السوري). إذًا لم يعد الموضوع كما كان في السنوات الخمس الأولى الهدف تغيير سلوك الدولة السورية والنظام السوري أو إسقاطه، بل تعدّى ذلك إلى مشاريع قديمة قدّمها برنارد لويس في تقسيم الدولة السورية، وقيام كيانات صغيرة متناحرة طائفية أو إثنية لتكرّس الهيمنة الصهيونية من جهة تضمن السيطرة على الموارد السورية والإقليمية المكتشفة ذات القيمة الاستراتيجية على المستوى الدولي. إن

[8] إذا كانت المعارضة المعتدلة بنظر الغربيين أجمعهم تعني المعارضة التي تحمل شتى أنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة فماذا سيكون معنى المعارضة غير المعتدلة ؟ أليس هذا هو الكذب والنفاق والإجرام بحق الشعوب، وسياسة الدول؟.

دعم الأكراد في الشمال الشرقي من سورية ودفعهم نحو إقامة كيان سياسي لهم يُشكل تفجيرًا للجغرافية السياسية في إقليم المشرق العربي وشرقي البحر المتوسط وكذلك دعم الإرهابيين في جنوب سورية والتعاون مع الكيان الصهيوني والنظام الأردني لإقامة شريط حدودي ذي صبغة طائفية وعقيدة رجعية تكفيرية يُعدّ محاولة لإيجاد مناطق آمنة ممولة من الكيان الصهيوني تضمن له الراحة والطمأنينة؛ وهذه المحاولة مشابهة لما كان عليه كيان انطوان لحد في جنوب لبنان. ولا تقل خطورة عما ذكر الاندفاع التركي الهمجي نحو الجغرافية السورية لقضمها وضمها إلى المناطق السورية التي اقتطعت في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي[9]. وأصبحت الآن مناطق واسعة من محافظة حلب ومعظم محافظة إدلب مجالًا جغرافيًا حيويًا للدولة التركية، ولعل من مساوئ أستانا هو إشراك الدولة التركية كضامن لخفض التوتر في مناطق ساخنة من الجغرافية السورية، إذ ترى تركيا أن هذا يعطيها حقًا دوليًا في التدخل في السيادة السورية، وخروج رعايتها للإرهابيين من السر إلى العلن.

في النهاية نلاحظ أن الولايات المتحدة قد حشدت الطاقات المادية وغير المادية لأكثر من 130 دولة (في بعض الأوقات كما في عام 2014م) ضد سيادة الدولة السورية بعنوان مؤتمرات أصدقاء سورية. إذًا تصرفت الولايات المتحدة بإمكانياتها كلّها، وحشدت كل ما تستطيع من قوة على الصعيدين الإقليمي والدولي ليس لتغيير سلوك الدولة السورية وجعلها تتراجع عن مواقفها في محور المقاومة (فك الارتباط مع إيران وحزب الله)، بل عمليًا لتدميرها بوصفها دولةً محوريةً في منطقة تتقاطع عليها المصالح الجيوبوليتيكية للدول العظمى.

2- **النظرية الليبرالية:** إنها نظرية صاغت العلاقات الدولية من وجهة نظر مغايرة للنظرية الواقعية. تعتمد الليبرالية على ثلاثة مفاهيم تُعدّ الأساس الذي تنطلق منه العلاقات الدولية الإقليمية والعالمية، وهي:

أ- التعاون الدولي.

[9] ضم الأتراك بقيادة مصطفى أتاتورك السهول السورية الخصبة والاستراتيجية الواقعة جنوب جبال طوروس ولواء اسكندرونة بدءًا من عام 1923م حتى عام 1939م برعاية ومباركة وتنسيق من الدولة الفرنسية الاستعمارية ومن بريطانيا أيضًا، وفق حساب مصالحه الخاصة على حساب الشعب السوري.

ب- التكامل الدولي.

ت- الاعتمادية المتبادلة.

لم يكن لهذه النظرية الدور الكبير في الأزمة السورية لأن مجالها خارج الدولة أكثر من داخلها، ولمّا كان هدف المشروع الغربي الإمبريالي هو تدمير الدولة السورية لذلك انصب استخدام هذه النظرية في الأزمة السورية في جمع طاقات الدول الغربية وغير الغربية المتعاونة معها في هذه الاستراتيجية الاستعمارية، كمنفعة تصب في مصالح تلك الدول كما ترى، فشكلت التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب ومساندة الشعب السوري (أي مساندة المعارضة كما يسمونه) بعنوان أصدقاء سورية.

3- النظرية البنائية: جاءت هذه النظرية لتشكل جسرًا بين النظريتين السابقتين النظرية الواقعية أو الموضوعية والنظرية الليبرالية أو الإصلاحية. حاولت هذه النظرية التصرف بأهم الموضوعات العالمية المهمة (السيادة والهوية والسلوك السياسي والأمن والقوة....).

خصائص النظرية البنائية: تتصف النظرية البنائية بالآتي:

أ- تُعدّ جسرًا واصلًا أو وسطًا بين الواقعية والليبرالية، أو كما يطيب لكثيرين تسميتها بالوسطية بين الاتجاهات العقلانية والاتجاهات النقدية.

ب- تركّز النظرية على أهمية القيم والقواعد الثقافية والهوية في سلوك الدول، في حين تأخذ النظريتان الواقعية والليبرالية بالمصلحة أساسًا لفهم سلوك الدول والعلاقات الدولية وتحليلها.

ت- لعل أهم ما يميز هذه النظرية أنها لا تأخذ بالمنهج العلمي التجريبي القائم على أن الوجود مستقل عن إرادة الإنسان، كما تأخذ به الواقعية، ومن ثمَّ فالواقع هو الذي يفرض سلوك الدولة، أمَّا هنا فالوجود ليس مستقلًا عن الإرادة، بل هناك تفاعل ونشاط مستمر في البناء؛ وذلك من خلال التفاعل بين الفاعل الذي هو الدولة والبناء، وهو العلاقات الدولية.

ث- إن التفاعل بين المؤسسات والقيم الاجتماعية والقواعد المتبعة له الأثر الأساسي في خلق أفكار الأفراد والمجتمعات والدول، وإيجاد بناء يؤثر في السلوك السياسي السائد.

ج– من خلال آلية التفاعل بين المصلحة الوطنية والقيم والقواعد تتجدد هوية المجتمع والدولة، ويتحدد من خلالها سلوك الدولة.

ح– ركزت البنائية على الفاعل والبناء، فأعطت أهمية كبيرة لجانب الوجود الاجتماعي (انطولوجيا علم الاجتماع) في العلاقات الدولية، فأبرزت مهمة اللغة في بناء العلاقات الدولية وتنظيمها، وأظهرتها على أنها علاقات اجتماعية إنسانية قبل كل شيء.

باختصار البنائية نظرية مركبة ترى بالفرد فاعلًا أساسيًا في مجتمعه، وذلك حسب موقعه الاجتماعي. وترى بالمصلحة الوطنية أنها متجددة باستمرار من خلال التفاعل المستمر بين الفاعل (الفرد، والمجتمع، والدولة) وبين البناء (المجتمع، والدولة، والنظام الدولي) وبذلك تنظر البنائية إلى الدولة على أنها بناء اجتماعي ولكنه فاعل أساسي في النظام الدولي، في حين ترى في النظام الدولي أنه بناءٌ اجتماعي أولًا ومادي ثانيًاز وكذلك بالنسبة إلى الأمن القومي، فهو متجدد كالمصلحة الوطنية [10] ومبني على التفاعل المستمر بين الفاعل والبناء، وكذلك الحال بالنسبة إلى الهوية، لكنها أي الهوية تُسهم في تحديد سلوك الفاعل (الفرد، والمجتمع، والدولة)[11]. وهكذا نصل إلى نتيجة نهائية بأن القوة عند البنائية هي عبارة عن بناء اجتماعي موجه لسلوك الدولة بالتفاعل مع النظام الدولي. وتوجد علاقة قوية بين المصلحة والهوية Identity، والأفكار هي التي تحدد المصلحة، وليس العكس كما في الواقعية، ومن ثمَّ فالمصلحة والهوية والأفكار مفاهيم اجتماعية مترابطة ومتبدلة (كونها تنشأ من خلال التفاعل) ومن ثمَّ فوجود واحدة يتحدد من خلال وجود الآخرين، أو الآخر داخل المجموعة، أو خارجها. وتؤكد النظرية بأنه يجب التمييز بين النقاط الثلاث الآتية:

أ– العلاقة بين المصلحة والقيم والقواعد والهوية.

ب– يتحدد سلوك الفاعل (الفرد، والمجتمع، والدولة) من خلال الهوية، وهذه الهوية تتحدد من خلال التفاعل بين الفاعل والبناء (المجتمع، والدولة، والنظام الدولي).

[10] Valhi, P; Kopi, M: International Relations Theory , Person, London, 2011.

[11] Mingus, K: Essentials of International Relations ,Norton, London , 2011, P: 46.

ت- تستمر الهوية ما دامت ظروفها مناسبة، ولكنها قد تتغير، أو قد تظهر هوية جديدة في مفاصل تاريخية مهمة كالحروب (الإقليمية أو الأهلية) أو الاستقلال، أو الانفصال.

يرفض البنائيون تأثير النظام الدولي في سلوك الدول، ويرون أن تفاعل العلاقات الاجتماعية مع النظام الدولي يُحدّد سلوك الدولة، وبذلك يتشكل الإطار الاجتماعي المكون من القواعد والقيم. من هنا تنطلق رؤية البنائية إلى السياسة الدولية بأنها ليست محكومة بالقوة والمصلحة فقط، بل بالمبادئ والقيم مثل: السيادة وعدم التدخل؛ وهذه بدورها أصبحت جزءًا من الإطار الاجتماعي لسلوك الدول، وضابطًا لها، وإن كانت تُخترق، فمخالفة القاعدة لا يعني عدم وجودها[12].

كيف استخدمت القوى الاستعمارية هذه النظرية في حربها العدوانية على سورية؟ فقد استخدمت هذه النظرية بقوة ضد الدولة السورية في محاولة جهنمية لخلق هوية جديدة، بل هويات، داخل الدولة من خلال العمل على العناصر الأساسية المكونة للهوية من جهة، والخروج بمخرجات جديدة للحرب المستعرة لا أقلها من هوية ينشّد إليها السوريون لتكون مركز استقطاب وطنيًا خارج حدود مركز الاستقطاب التقليدي للهوية السورية، التي يتجمع حولها السوريون وتوحدهم ويتصفون بها عن غيرهم بالعروبة والتراث والجغرافية والثقافة، فعمدت لدعم الإرهابيين الذين دمروا البنى الوطنية السورية في كثير من المناطق الجغرافية فهجّروا، وذبحوا، واستباحوا الأملاك، والأعراض، وركزوا على ضرب علاقات المراكز العمرانية بين بعضها على أسس قبلية وطائفية ومذهبية، وأحيانًا إثنية، وعلى علاقة الأفراد مع المجتمع ومع الدولة لخلق معادلات جديدة قائمة على كسر الجذر المنطقي والعلمي والإنساني، وتحويل القيم والقواعد الانسيابية نحو الآخر والمركز والتفاعل الموروث بين الفرد والمجتمع والدولة بحيث تُصطنع زواريب جديدة صغيرة ومغلقة مغلّفة بقيم وقواعد مجتمعية ضيقة مركزها إمارات وخلافة وألوية وجيوش وجبهات يختلط بها الفردي بالاجتماعي بالعسكري، ومن جهة ثانية إخراج سفارات الدول المتآمرة على سورية والدول الذيلية المرتبطة بها لجعل شبكة العلاقات بين الدولة السورية وبين النظام الدولي في أضيق فضاءاتها ليضيق

[12] Griffiths, M: International Relations for 21 Century, London , Rutledge , 2012, P: 67.

الخناق (كما ترى تلك القوى) على الدولة السورية؛ ممَّا سيحدد جغرافيًا مجال حركة الدولة السورية لأن قوة الدولة (الفاعل) تأتي من كثرة تشابكاتها وتشبيكها في النظام الدولي (البناء)، ولكن الدولة السورية عملت في المجال الداخلي لمواجهة الحالة التفككية التنابذية من خلال صمودها أولًا، والحوار الوطني والعمل لاستمرار تقديم الخدمات الأساسية وغير الأساسية بانسيابية تامة قدر ما تسمح به الظروف (الرواتب، والتعليم، والصحة، والاتصالات، والكهرباء، والطاقة، وخدمات النقل وحماية الطرق الرئيسة بين المحافظات كونها شرايين الجسد السوري، والمحاكم والسلطات الأساسية وغيرها....) مع إدراك الغالبية العظمى من المواطنين حقيقة المؤامرة مع الزمن، وكذلك مع الإصلاحات التي مشت فيها الدولة كإصدار قانون الأحزاب والانتخابات، وتغيير المادة الثامنة من الدستور السوري، بل تغيير الدستور بكامله، وإصدار قانون الإعلام، والمطبوعات، ورفع حالة الطوارئ. وعلى الصعيد الخارجي واجهت الدولة السورية، بقوة وشراسة وصبر، التحديات التي وضعتها القوى الاستعمارية ضد سورية، فقد ذكرنا بأن نحو 130 دولة جُمعت وحُرّضت لتقف ضد الدولة السورية، ولكن سورية اعتمدت على أصدقاء أوفياء مثل إيران وروسيا والصين أولًا وقد استطاعت بصبرها وصمودها وتكشّف الحقائق في مجريات الحرب عليها وبأنها حربٌ إرهابية عالمية على دولة وطنية أن تستوعب الصدمة أولًا، ثم تنتقل إلى مرحلة الدفاع المنظم، ثم إلى مرحلة التأهب والهجوم في أماكن حيوية، ثم في مناطق أوسع وأوسع عبر محطات بابا عمر والقصير وداريا وحلب، لدرجة لم يبقَ من هذه الدول أكثر من عشر دول؛ وهي الدول التي تشن الحرب على سورية مباشرة والداعمة للإرهاب فكرًا وتمويلًا وتسليحًا وتدريبًا

4- **النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت):** تعود هذه النظرية إلى عشرينيات القرن الماضي، وهي نظرية حاولت أن تتوجه نحو تغيير المجتمع، وأوضحت بأن البناء الاجتماعي يأتي نتيجة للتفاعل بين الفرد ومحيطة. وبرأي أحد أهم مؤسسيها روبرت كوكس فإن هذا البناء مكون من القوى الاجتماعية والأعراف والقيم والتقاليد، وأن للدولة أشكالًا مختلفة وليس شكلًا واحدًا كما ترى الواقعية، وأن الهدف في النهاية هو تحرير الإنسان، وقد حاول مارك هوفمان تلخيص أفكار كوكس (أي النظرية النقدية ككل) بالآتي:

أ- وحدة النظام الاجتماعي والسياسي وآلية التغيير في المجتمع.
ب- كيف جاء النسق الاجتماعي والقوى الفاعلة فيه.
ت- التركيز على التاريخ كنشاط مستمر ومتغير.
ث- التشكيك بشرعية المؤسسات الاجتماعية والسياسية وضرورة البحث عن تغييرها.
ج- وجود علاقة قوية بين المعرفة والقوة، وهي هنا تشبه النظرية الواقعية.
ح- الهدف في النهاية هو تحرير الإنسان.
خ- ضرورة الانتقال في النهاية إلى نظام اجتماعي سياسي أفضل من السائد.

يرى هوفمان أنَّ من الضروري التركيز على القوى الاجتماعية لدورها المهم في تثبيت نسق اجتماعي سياسي محدد أو تغييره.

تنطلق النظرية النقدية من الأسس الآتية:

أ- الجانب الإنساني للقوى الاجتماعية.

ب- الحقائق في النسق الدولي غير ثابتة، والقيم وحدها هي التي تؤثر في رؤية هذا النسق وتفسيره.

ت- لعلاقة الفرد بالجماعة دور كبير حيث تتكون المصلحة المشتركة للمجتمع.

ث- ترتبط المعرفة بتحرير الإنسان، وهو مبدأ عالمي.

ج- يرتبط سلوك الدولة بالبناء الاجتماعي للدولة.

مع الانتقادات الموجهة لهذه النظرية مثلها مثل كل نظرية (المثالية في التركيز على تحرير الإنسان وتضخيم دور القوى الاجتماعية) إلا أنها استخدمت في أماكن كثيرة في العالم، وعلى الخصوص في الوطن العربي كونها تركز على البناء الاجتماعي، وضرورة تغييره كأساس لإيجاد نسق اجتماعي سياسي يتوافق مع الأهداف الكبرى لهذه النظرية؛ وهي تحرير الإنسان. ومن هنا نجد كيف دُفِعَتْ مجموعة كبيرة من المفاهيم الغربية، وضَخّتْ باتجاه المجتمع السوري، حيث تم شيطنة النظام أولًا، وبأنه يقتل شعبه ويضطهده ويحدّ من حرياته الفردية والجمعية على حد سواء.

تمادت الأنظمة الغربية في استخدام الجانب الاجتماعي، بل تغيير سلوك الدولة السورية، أو تغيير النظام السوري بعنوان الشعب يريد ذلك، وبذلك تُظهر أن تحرير الإنسان هو الهدف الرئيس من الحراك السوري. وأن النظام يستخدم العنف مع هذا الحراك، وقد تم بالوقت نفسه غضّ الطرف عن مصادر التمويل وطبيعة العناصر التي دخلت إلى سورية لإحداث التغيير الاجتماعي ثم السياسي فيها، فهؤلاء الممولون لا علاقة لهم بمفاهيم تحرير الإنسان، ولا بالديمقراطية وكذلك الأفراد الذين يحملون أفكارًا وأيديولوجيا تعود للقرون الوسطى، وهم إقصائيون لا بل ليس همهم المجتمع السوري، بل جاؤوا لتأسيس إمارات ودول (خلافة) مهددة لكل ما جاءت به الحضارة الإنسانية في القرنين السابقين، حيث الصبغة الأساسية أوروبية أو غربية على العموم، فالغرب إذًا جعل من سورية مخبرًا لتجريب صحة أفكاره في تهديم المجتمع، وتغيير النسق الاجتماعي السياسي تحت وهم مصلحة الشعب السوري والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والأقليات (التنوع الإثني والطائفي والمذهبي)، ولكن في حقيقة الأمر كان الوضع مغايرًا كليًا ، فالسوريون كانوا متجانسين ومتناغمين في حياتهم عبر العصور، ولم تنشأ حروب داخلية لتغيير البنى الاجتماعية، وإلّا لما وصل إلينا هذا التنوع وهذا التناغم. فقد كان الشيء الذي يعاني منه المجتمع السوري هو في القضايا الاقتصادية، وما يرتبط بها من عناوين سياسية، وهذه موجودة في مجتمعات العالم كلّها، المتقدمة منها والنامية، وهذه القضايا تُحل أسسها بالتراكم الزمني وبالتطور الاجتماعي والاقتصادي، لا بل يمكن القول: إن حالة سورية قبل الأحداث كانت أفضل من بعض الدول الأوروبية، الغريب في الأمر أن بعض الأنظمة الغربية، وحتى بعد ما جرى كلّه، ومن وضوح تام لحقائق الأمور في الأزمة السورية، ما زالت تنادي حتى الآن بمصلحة المجتمع السوري، وضرورة تغيير النظام السياسي، وتطرح بالوقت نفسه الشيء ونقيضه دون خجل مثل: نريد سورية دولة ديمقراطية، وحل أزمتها سياسيًا، ولكن ليس للنظام (شخص السيد الرئيس) دور في مستقبل سورية.

إنهم يريدون أن يقرروا عن الشعب السوري، وفي رد على تصريح لوزير خارجية الولايات المتحدة تيرلسون، في مؤتمر دول العشرين الأخير الذي انعقد في هامبورغ اضطر الرئيس

الروسي فلاديمير بوتين أن يقول له: أنت لست مواطنًا سورية لتقرر إذا كان سيكون للرئيس الأسد مستقبل سياسي في سورية.

5- نظرية ما بعد الحداثة (Post-Modernism): نشأت هذه النظرية من تجميع لأفكار جملة من الباحثين مثل ريتشارد آشلي وميشيل فوكو وبيير بورديو وجيمس ديردريان مستفيدة من النظريات السابقة، ومحاولة إدخال بعض المفاهيم الجديدة المتوافقة مع التطورات العالمية والتقنية والتغيرات السياسية الدولية وسيادة القطب الواحد بعد انهيار الكتلة الاشتراكية في العقد الأخير من القرن العشرين، وعلى العموم يمكن تحديد القواعد الآتية التي تنطلق منها هذه النظرية:

أ- قائمة على التنوير ووحدة الإنسانية.

ب- ترى أنَّ القوة في العلاقات الدولية كالعملة في الأسواق التجارية.

ت- تأكيد القوة الناعمة في التغيير، وتحقيق الأهداف المرجوة.

ث- تأكيد دور التاريخ Genealogy في كشف أثر العلاقة وتحديدها بين القوة والمعرفة زمانيًا. أي التشكيك بالتاريخ، وهذه الفكرة تعود بالأساس للفيلسوف الألماني نيتشه عندما قال: "الحقيقة ليست إلا غير الحقيقة".

ج- الحقيقة محكومة بالإطار السياسي والتاريخي في زمن محدد، وهذا يؤدي إلى نتيجة مفادها بأنه لا توجد حقيقة واحدة، بل حقائق عدة.

ح- للغة والنص أثر كبير في نقل المعرفة والخطاب والاعتقاد، أي إنَّ للغة أهمية كبيرة في تشكيل الهوية والثقافة وصنع الحقيقة.

إن استخدام مفردات الارتكاز في هذه النظرية في التعامل مع الأزمة السورية كان على درجة كبيرة من الفاعلية والخطورة، وخصوصًا في إنكار حقيقة ما يجري في سورية، فما يقوله السوريون، شعب ونظام، ولو كان حقيقة بالفعل إلا أن الغرب ومن يدور في فلكه من الأعراب وتركيا يرون حقيقة أخرى تمتلك مسوغاتها، ويكفي أننا (أي هم) يرونها كذلك، ولذلك استُخدمت القوة الناعمة (الأفكار والأكاذيب المتكررة) عبر الأدوات الخطيرة محطات التلفزة الكثيرة ذات السمعة عند السوريين (يبدو أنهم عملوا عليها منذ مدة لتحقيق هذا الهدف)

كالجزيرة والـ بي بي سي وغيرهما من المحطات التي تُعدّ بالمئات، ويجب أن نلاحظ هنا أن الوحدة الإنسانية بين الشعوب وحقوقها قد استُغلّت لدرجة خطيرة، فغرق طفل أو فبركة عذابات عائلية (حيث اتضح فيما بعد أنها ملفقة كلها)، أو عرض صور لأفراد جياع (وقد كانت من مناطق غير سورية) وُظّفت كلها بهذا العنوان، الشعب السوري يُباد ويُحاصر ويجوع ويموت أين التلاحم الإنساني للوقوف ضد النظام وإنقاذ هذا الشعب المظلوم، متغاضين عن المسبب في هذه الآلام وهذه الأزمة، ولم يُشغّلوا عقولهم بحقيقة كيف يصل السلاح إلى هؤلاء إن كانوا محاصرين ولا يصلهم الغذاء؟

إن ضخ مفردات سياسية جديدة إلى الجغرافية السورية (كأسماء جبال ومناطق وغير ذلك) أُريد منه التشويش أولًا في بنية الهوية السورية (هذا كردي وهذا تركماني...)، ثم إعادة بناء خصائص هوية جديدة تحمل في طياتها التنابذ والصراع، إذا لم تكن الآن فستكون في المستقبل، ولعل الدولة التركية بأحلامها العثمانية الجديدة كانت من أكثر الدول المعتدية على سورية استخدامًا لهذه المفردات، وتوظيفًا فيها لأهداف مستقبلية أساسها ضم بعض الأراضي السورية والمراكز العمرانية التاريخية. وقد تكررت هذه الحالة في جنوب سورية بالتعاون والتنسيق المباشر مع الكيان الصهيوني لإقامة كيان سياسي وسيط أو بيني يضمن لها الاستمرار في احتلال الجولان وغيره. وبالوقت نفسه يصعب فهم الحقد الكبير الذي تضمره الدولة الفرنسية لسورية وللشعب السوري، إلا إذا وضعنا بالحسبان الهزيمة الكبرى التي منيت فيها فرنسا في سورية، والإذلال الشديد الذي أصاب الجيش الفرنسي خلال ربع قرن من الزمن، 1920 – 1946م، على يد الثوار السوريين وصمود الشعب السوري. فدور التاريخ هنا ظهر بكل جلاء بين فرنسا الاستعمارية وسورية الثائرة والمنتفضة على الظلم. أمَّا أعراب الخليج فقد كانت دائرة مفاهيمهم السياسية الجديدة، التي تُضخ عبر قنواتها اللامحدودة العدد نحو المجتمع السوري المسلم في أغلبه (خطر مذهب على مذهب آخر يُشكل الأغلبية)، إنها كذبة واحدة متكررة لأن دول النفط والغاز ليس لديها ديمقراطية ولا حزبية ولا حقوق إنسان ولا إنسانية؛ لذلك انحصرت حملاتها الافترائية على السوريين في الجانب الطائفي والمذهبي.

إذًا استخدم أعداء سورية نظرية ما بعد الحداثة في النقاط الآتية:

1- استخدام القوة الناعمة لتحقيق الأهداف مع أنهم استخدموا وما زالوا يستخدمون القوة العسكرية الإجرامية الإرهابية ضد الشعب السوري.

2- تشويه الحقيقة ووضع حقائق أخرى غيرها على أساس أن الحقيقة محكومة بإطار سياسي في زمن محدد ومن ثمَّ ما كان صحيحًا في مرحلة ما، ليس صحيحًا ولا ضروريًا في مرحلة لاحقة.

3- تفكيك الهوية السورية ومحاولة بناء هوية تتوافق مع الأهداف المرسومة.

في نهاية هذا البحث من المفيد التركيز على نقطة مهمة تستخدم حاليًا في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي بعض الدول الأوروبية ما بات يُعرف بالدولة العميقة. فقد جاء هذا المصطلح في السنين الأخيرة تعبيرًا عن دور المؤسسات في صنع القرار السياسي، وأن السلطة التنفيذية الممثلة برئيس الدولة ووزارة الخارجية لا تمتلك إلا هامشًا ضيقًا في صنع هذا القرار، ولذلك لا تتغير الأهداف الكبرى والاستراتيجيات التي تنطلق منها سياسة الولايات المتحدة على سبيل المثال، وأن قدرة الرئيس تبقى محكومة في هذا السياق، أي نسق الدولة الاجتماعي والسياسي، ومن ثمَّ سلوك الدولة لا ينعطف انعطافة كبيرة، بل يبقى ضمن اتجاه الزاوية المرسومة. وفي الولايات المتحدة يؤثر قرار الكونغرس ولا سيّما صقور الكونغرس والمروحة التي تدور فيها، والمرسومة أساسًا من الكتل الفاعلة في هذا الكونغرس (اقتصادية وسياسية وعسكرية) من داخله أو من خارجه، أو ما بات يُعرف بالمحافظين الجدد، وكذلك تحالف الرعب من اليمين الديني المتطرف والجمهوريين وأتباع الفكر المحافظ[13]. هنا يُلاحظ دور النخبة في صنع القرار السياسي، لأنها أي النخبة هي وحدها القادرة على معرفة الحقيقة[14] إن تأثير النخبة الفُضلى والأكثر ذكاءً في صنع القرار في الولايات المتحدة أساسها الفكر الصهيوني الذي تمكّن من صياغة هذه الاستراتيجية اعتمادًا على الفيلسوف اليهودي ليو شتراوس وعلى إيرفينغ كريستوفر.

[13] عبد اللطيف، أميمة: المحافظون الجدد، قراءة في خرائط الفكر والحركة، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2002م. ص:9.

[14] فوكوياما، فرنسيس: أمريكا على مفترق الطرق ما بعد المحافظين الجدد، ترجمة: محمد محمود التوبة، الرياض، مكتبة العبيكان، 2007م، ص: 30.

إن معرفة أصول النخبة الفاعلة في تحديد سلوك الدولة الأمريكية وتصويب حركتها يبيّن لنا بدقة الأسباب الحقيقية لقيادة الولايات المتحدة الحرب العدوانية على سورية. يرى المحافظون الجدد أن المتحكم في الشؤون الدولية هو المواقف الأيديولوجية بالدرجة الأولى. وأن إعادة تشكيل خريطة الشرق الأوسط أمر ضروري بأية وسيلة والحرب الوقائية هي الفضلى لتحقيق الأهداف، وأن سياسة الكذب ضرورية للدولة، وأن النخبة وحدها القادرة على إدارة المجتمع ومعرفة الحقيقة، وأن الامبريالية ضرورية إن كانت تقدمية. في المحصلة نجد أن تزعم الولايات المتحددة للحرب على سورية وحشد الطاقات الرجعية العربية والإقليمية (تركيا) والدولية لتدمير الدولة السورية أو تغيير سلوكها، وقد حاولت فرض شروطها على السوريين في عام 2003م على يد كولن باول وزير الخارجية آنذاك (على أساس فك الارتباط مع إيران وحزب الله والمنظمات الفلسطينية وإقامة صلح مع إسرائيل) كان ذلك كلّه من أجل ضمان أمن الكيان الصهيوني، واستمرار تدفق النفط والغاز إليها وإلى حلفائها في أوروبا. وقد تكررت هذه الحالة في عام 2011م عندما طلبت كلينتون (وزيرة الخارجية) من الحكومة السورية المطالب ذاتها تقريبًا لتُعطى شهادة حسن السلوك والديمقراطية للنظام السوري.

نتائج البحث:

توصلنا في هذا البحث إلى جملة من النتائج أهمها الآتي:

1- استخدم الغرب معظم مكونات نظرياته الجيوبوليتيكية في حربه العدوانية على سورية.

2- لم يتوانَ الغرب عن تزوير الحقائق في مجريات الحرب على سورية ومراحلها.

3- حُمِّلت المفاهيم الإنسانية البسيطة معاني وأبعادًا سياسية تدميرية لم تترك مجالًا من مجالات الحياة المتنوعة.

4- استخدم الغرب وسائل وأساليب النفاق والكذب على طريقة غيبللز (وزير الدعاية النازي)، على مبدأ كلما كان الكذب أكثر وقاحة كان انتشاره أسرع، وصدّقه الناس أكثر. فالناس أكثر قبولًا للتلقين ولا سيّما إذا تم بأفكار بدائية تعتمد على الغرائز.

5- كوّن الغرب مؤسسات مهمتها إنتاج معارك افتراضية ذات جوانب إنسانية، كمؤسسة الخوذ البيضاء وغيرها، واستخدام السلاح الكيماوي وقتل عائلات وأطفال ونساء وكبار سن

وقام بتكرار هذه الأحداث لأن تكرار الكذب يزيد من نسبة المصدّقين له، وإذا لم يصدقه كثيرون فالمهم أن يصدقوه هم (مورّد الأكاذيب وناقلها ومروجها).

6- استُخدِمَت الرموز التاريخية في مجمل العناوين التي أُخرجت ليتوحد تحتها حاملو السلاح ضد الدولة السورية، مثل: جيش الإسلام، والنصرة ودولة الخلافة....، وهذا ما تؤكده نظرياتهم العتيدة.

أخيرًا يمكن القول: إن الأزمة السورية تعود لمؤامرة خارجية تعود لعقود، وإن كانت قد ظهرت طلائعها منذ اجتياح الولايات المتحدة للعراق في عام 2003م وأن وجود حوامل محلية استغلها الغرب أسوأ استغلال يمكن أن توجد في معظم دول العالم إن لم تكن في الدول جميعها، كالبطالة وضعف التنمية والأمية والتسرب المدرسي وضعف التوجيه والرعاية الاجتماعية والفقر وغير ذلك.

خاتمة بمقترحات دعم المجتمع السوري والتصدي للمؤامرة والعدوان:

1- طرح مشروع وطني للنهوض بسورية الجديدة تلتقي عليه فصائل المجتمع السوري كلّها السياسية بحيث تنتفي فيه المصلحة الحزبية، وتكون مصلحة الوطن أولًا وأخيرًاز

2-دعم مكونات الشعب السوري على أساس الحقوق المتساوية، لا أقلية ولا أكثرية، وإظهار خصائصها الثقافية التي تُغني المكون السوري وتزيده قوة وتماسكًاز

3-في إعادة الإعمار يجب التوجه نحو التنمية الإقليمية التي تأخذ بالحسبان الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة في كل إقليم لجعل المكونات الجغرافية للوطن السوري أكثر تماسكًا وتفاعلًا وتكاملًا.

المراجع العربية:

1- أحمد سعيد، إبراهيم: ما بين الجغرافية السياسية ومخاطر الجيوبولتيك والعولمة، دار الأوائل، دمشق، 2006م.
2- عبد اللطيف، أميمة: المحافظون الجدد، قراءة في خرائط الفكر والحركة، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2002م.
3- فوكوياما، فرنسيس: أمريكا على مفترق الطرق ما بعد المحافظين الجدد، ترجمة: محمد محمود التوبة، الرياض، مكتبة العبيكان، 2007م.

المراجع الأجنبية:

1- Dahl, R: Politics ;Who Gets What, When and How. Yale. New Haven, 1966.
2- Griffiths, M: International Relations for 21 Century. London, Routledge, 2012.
3- Mingus, K: Essentials of International Relations ,Norton, London, 2011.
4- Norman, J. G: Ponds, PoLitical Geography. MC. Grew-Hill Book CO. New York.1963..
5- Paul, R; Viotti, M; Kauppi, V: International Relations Theory , Pearson. London, 2011.